الجغرافيا على
مر العصور

الفصل الثالث

الفكر الجغرافي
عند الرومان

obeikandl.com

obeikandl.com

تعتبر الحضارة الرومانية امتداداً للحضارة الإغريقية، لأنها قامت علي أنقاضها، خاصة وأن معظم مفكري الحضارة الرومانية وعلمائها كانوا من الإغريق الذين عاشوا في روما، ففي القرن الثالث قبل الميلاد ظهرت روما في شبه جزيرة إيطاليا، وورث الرومان كلا من: الإغريق والفينيقيين في السيطرة علي البحر المتوسط. والرومان شعب استقر في وسط شبه الجزيرة الإيطالية ابتداء من القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وقام بتأسيس مدينة روما القديمة، ثم عمل هذا الشعب على تنظيم مؤسساته السياسية والعسكرية والاجتماعية وتطويرها، وبدأ بالتوسع التدريجي وأسس دولة سيطرت في بادئ الأمر على شبه الجزيرة الإيطالية، ثم اتسعت هذه الدولة وسيطرت على معظم العالم القديم، وأصبحت حدودها شاسعة امتدت من الجزر البريطانية وشواطئ أوروبا الأطلسية غرباً إلى بلاد مابين النهرين وساحل بحر قزوين شرقاً، ومن وسط أوروبا حتى شمال جبال الألب شمالاً، إلى الصحراء الإفريقية الكبرى والبحر الأحمر جنوباً، وبذلك كانت مثالاً للدولة الجامعة (Universal State) ذات الطابع الاستعماري، وقد استمرت حتى القرن الخامس الميلادي الذي تمكنت فيه القبائل الجرمانية من السيطرة على مقاطعات الدولة الرومانية في عام ٤٧٦م.

شكل رقم (٣١) الإمبراطورية الرومانية

ولا توجد وثائق أو إثباتات تاريخية تحدد مجيء الرومان إلى شبه الجزيرة الإيطالية وتأسيسهم لمدينة روما، وإنما اعتمد المؤرخون على مجموعة من الأساطير والروايات التي تناقلها الأشخاص الذين درسوا التاريخ القديم على مر العصور.

وتؤكد الاكتشافات الأثرية والمستندات التاريخية وقائع تأسيس القرية الصغيرة على يد الزعيم اللاتيني «روموليوسRomulus » وقد أطلق عليها اسم (روما) نسبة إلى مؤسسها، الذي نصّب نفسه ملكاً عليها كأول ملك على روما والمناطق المحيطة بها، وأسس بذلك سلسلة من الملوك، بلغ عددهم سبعة حكموا روما. وتشير الروايات إلى أن «روموليوس» ركز خلال تأسيس الدولة على النواحي العسكرية، وقد وضع استراتيجية تتلخص فيما يلي :السيطرة على الأراضي المحيطة بروما، إرساء القواعد الأولى للشرائع والديانة الرومانية، والتوسع والسيطرة على الأقاليم المجاورة.

وقد اهتم الرومان بالطرق البرية بشكل كبير، حيث ربطت هذه الطرق العاصمة (روما) بكل من أوربا وبلاد الشرق، واهتموا بالقياس والخرائط، وقامت مدينة الإسكندرية بدور رائد في المجالين العلمي والثقافي واجتذبت العديد من الجغرافيين أمثال: «سترابو»Strabo (٦٣ ق. م - نحو ٢١م) و«بليني Pliny» و«بطليموس Ptolemy. كما أفاد علماء العهد الروماني من المجهودات الفكرية التي قام بها علماء اليونان، وكذلك من اتساع الإمبراطورية الرومانية التي شملت كل الأراضي المطلة على البحر المتوسط وامتدت في أراضي آسيا وأوربا وإفريقيا. وقد أدى ذلك إلى زيادة المعرفة بكل تلك الجهات وخاصة أن التجارة في عهد الرومان ازدهرت بشكل لم يعرف له مثيل من قبل.

ولقد اقتصرت أبحاث الرومان الفلكية على دراسة الأرض على أسسٍ فلكية ورياضية وقد قام الرومان بتقدير حجم الشمس وبُعْدِهَا تقديراً قريباً من الحقيقة

ووصلوا إلى أن القمر قريب جداً من الكرة الأرضية وأصغر منها حجماً. ويعد «سترابو» أو«سترابون» أشهر الجغرافيين الرومان، فقد قام برحلات عديدة، وكان يعتقد أن سبب البراكين هو قوة الرياح الحبيسة في باطن الأرض، وأن الزلازل من الممكن أن تقضي علي برزخ السويس وتفتح البحر الأحمر علي البحر المتوسط، وأن جزر البحر المتوسط انفصلت عن اليابسة بفعل الزلازل والبراكين، وأن فيضان النيل يعزى إلى أمطار صيفية تسقط علي هضبة الحبشة، كما ضم مؤلفه دراسة وصفية إقليمية عن قارتي أوربا وآسيا، ودراسة موسعة عن مصر.

و«سترابو» مؤرخ وجغرافي إغريقي. يعتقد أنه ولد في أماسية (Amaseia) عاصمة مملكة «بونتوس» (Pontos) على الساحل الجنوبي للبحر الأسود، ودرس الجغرافية على تورانيون (Tyrannion) وعرف «بوسيدونيوس» الأبامي. وتذكر المصادر حول حياته أنه ارتحل من آسيا الصغرى إلى روما التي أقام فيها بين عامي ٤٤ - ٣١ ق.م، كما أمضى المدة بين ٢٥ - ١٩ق.م في مصر، ثم عاد إلى بلدته أماسية (٧ق.م) حيث عاش حتى وفاته.

شكل رقم (٣٢) سترابو

وقد كتب إبان إقامته في روما أول كتبه الموسوعية التاريخية بعنوان «Historika ypomnimata» وتعني «مقتطفات تاريخية» وجاءت هذه الموسوعة في ٤٧ كتاباً، يعتقد بأنها نُشِرَت نحو سنة ٢٠ق.م، وبقيت منها أجزاء متناثرة في كتابات مؤرخين متأخرين. ويبدو من دراستها أنها كانت محاولة من سترابو لإتمام ما كتبه بولوبيوس (Polybios) عن «تاريخ العالم». وقد شملت موسوعة «سترابو» تاريخ العالم المعروف وقتئذ من سنة ١٤٥ق.م، وهي السنة التي غزا فيها الرومان بلاد اليونان، حتى سنة ٣١ق.م وهي السنة التي قضت فيها روما على آخر مملكة هلنستية في موقعة أكتيوم.

وبعد مغادرته مصر كتب «سترابو» موسوعته الجغرافية «Geographia» وجاءت في ١٧ كتاباً، خصص الكتابين الأول والثاني منها للتعريف بالأهداف والوسائل الخاصة بهذه الموسوعة، وذلك عن طريق نقد كتابات من سبقه وتصحيح خرائطهم. ولعل أشهر إنجازاته في هذا المجال تصحيحه خريطة للعالم كان قد رسمها «إراتوستين» Eratosthenes (٢٧٦-١٩٤ق.م) ونقده معلومات الفلكي «هيبارخوس» ولاسيما في مجال عدم نجاحه في وصف كوكب الأرض، ومدحه تاريخ بولوبيوس الذي تضمن في مقدمته وصفاً دقيقاً لجغرافية أوربة، كما مدح المؤرخ «بوسيدونيوس» الأبامي لمعرفته بالجغرافية الطبيعية والبشرية، وإن كان رفض نظريته حول المناطق المناخية ولاسيما فرضيته حول إمكانية سكنى البشر مناطق خط الاستواء. وصرح في مقدمة جغرافيته بأنه يكتب الجغرافية كرجال السياسة الذين يجب أن يعرفوا كل شيء عن البلاد التي يتعاملون معها.

وقد خصص «سترابو» كتبه الأربعة التالية (من الثالث حتى السادس) للحديث عن جغرافية كل من أسبانية وإيطالية وبلاد الغال (فرنسا)، ومهد لهذه الكتب بالاعتراف بأنه اعتمد على مشاهدات بولوبيوس وبوسيدونيوس إضافة إلى كتابات الجغرافي الإغريقي «أرتميدوروس» Artemidoros (أواخر القرن الثاني ق.م)،

الذي ضمن كتابه «رحلة حول العالم المأهول» وصفاً مسهباً لسواحل أقاليم كل من أسبانيا وإيطاليا وبلاد الغال.

ومع أن الكتاب السابع استند إلى المصادر السابقة نفسها فإنه أفرده لوصف جغرافية حوض الدانوب وسواحل البحر الأسود الأوربية فقط، في حين خصص الكتابين الثامن والتاسع لوصف جغرافية بلاد اليونان معتمداً على كل من أبولودوروس الأثيني (القرن الثاني ق.م) ودمتريوس السكبسي Demetrios of Scepsis (ولد نحو ٢٠٥ ق.م) وأبدى فيها اهتماماً ملحوظاً بجغرافية المدن التي تحدث عنها هوميروس في إلياذته. وعاد مرة أخرى في كتبه، من الحادي عشر إلى الرابع عشر، إلى وصف سواحل البحر الأسود الآسيوية إضافة إلى بلاد القفقاس (القوقاز) وشمالي إيران وآسيا الصغرى. ويلاحظ أن «سترابو» أضاف إلى ملاحظاته الخاصة اقتباسات من أعمال مؤرخين محليين أرّخوا لبعض الحروب التي جرت في تلك المنطقة، أما الكتاب الخامس عشر فقد أجمل فيه «سترابو» حديثاً سريعاً عن الهند وفارس معتمداً بصورة أساسية على ما خلفه مؤرخو حملات الاسكندر (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م)، وقد أفرد كتابه السادس عشر لوصف بلاد سورية ومابين النهرين وفلسطين والبحر الأحمر.

وتذكر المصادر الرومانية أن حملات كل من ماركوس أنطونيوس (٨٣ - ٣٠ ق.م) وأغسطس (٦٣ق.م - ١٤ م) في هذه المنطقة اعتمدت اعتماداً كاملاً على ما كتبه «سترابو» عنها. وميّز جغرافية مصر عن غيرها (كما فعل هيرودوت من قبل) بتخصيص كتاب كامل لها ضمّنه حديثاً عن الساحل الإفريقي حتى موريتانية وهو الكتاب الأخير الذي حمل رقم ١٧.

وعلى الرغم من الفخر الذي كان يدوي في كتابات «سترابو» حول قيامه برحلات شملت المناطق من أرمينية في الشرق إلى توسكانة المقابلة لجزيرة سردينية غرباً ومن البحر الأسود في الشمال إلى إثيوبية جنوباً، فإن التدقيق فيما كتبه يثبت أنه

زار أجزاء متفرقة محدودة من الأقاليم التي مرّ بها، وأنه اعتمد كثيراً على المرويات التي ذكرت له في أثناء زياراته. ومع هذا فقد أثبتت الدراسات الجغرافية الحديثة أن مؤلَّف «سترابو» الجغرافي احتوى معلومات دقيقة عن المسافات بين المدن والحدود والأقاليم والزراعات الرئيسة والأنشطة الصناعية والأوضاع السياسية والخواص العرقية والعقائد الدينية والحوادث الطبيعية كالزلازل ومنابع النفط وفيضانات الأنهار. إضافة إلى تواريخ المدن والدول ومنها الأساطير والخرافات والحروب ونتائجها. وبوجه عام تمثل كتابات «سترابو» أصدق رواية جغرافية تاريخية عن منطقة المتوسط والأقاليم المجاورة في التاريخ القديم.

وقد أفاد «سترابو» من علوم من سبقوه ومن توسع الإمبراطورية الرومانية، فتمكن من رسم خريطة للعالم كما عرفه الرومان، ظهر فيها حوض البحر المتوسط وأجزاء كبيرة من أوربا وإفريقيا وآسيا. ولقد اعتقد «سترابو» أن الأرض مطوقة بالمحيط من جميع الجهات. ومما جاء في كتبه «أن من يريد دراسة الأرض دراسة حقيقية لابد أن يصنع لها كرة.. وأن يرسم عليها خارطة العالم المسكون». وإذا لم يكن بالإمكان صناعة كرة فإنه يمكن رسم الخريطة على صفحة مستوية.

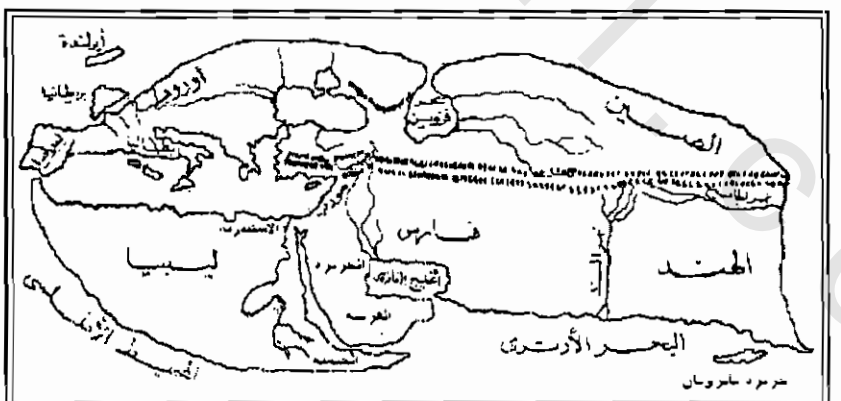

عن: محمد صبحي عبد الحكيم وماهر الشنتي . علم الجغرافية . مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة . ١٩٦٦ . ص ٢

خريطة استرابو

شكل رقم (٣٣) خريطة العالم لاسترابو

كما اهتم «سترابو» بشكل كبير بدراسة الأقاليم المناخية، وتنوعها علي أساس دوائر العرض، وربط بين حدوث ظاهرتي المد والجزر وكل من الشمس والقمر، وفي خريطته للعالم جعل بحر قزوين مفتوحاً، وجبال البرانس تمتد من الشمال إلي الجنوب، كما أكد علي ضرورة اهتمام الجغرافي بالمعمور من الأرض، وعلي أهمية الجوانب الطبيعية والأساليب الرياضية في الجغرافيا، خاصة الجغرافيا الفلكية ورسم الخرائط.

أما «بطليموس» فهو عالم فلكي ورياضي وجغرافي مشهور. ولد وعاش في الإسكندرية في حوالي منتصف القرن الثاني الميلادي. أقام مرصداً فوق أحد المعابد بالإسكندرية حيث سجل إنتاجه الجغرافي في كتابه المشهور الذي عرف باسم (الفلكي الكبير أو التراكيب الرياضية) وقد حاز هذا العمل كثيراً من التقدير، حتى أنه بات يعرف باسم (المجسطي)، وهو اصطلاح مزيج من اليونانية والعربية بمعنى المجيد وقد ترجمها العالم العربي حنين بن إسحاق ثم نقحها العالم العربي ابن سينا في كتاب «مختصر المجسطي»، ويقع في ١٣ مجلداً، تحدث فيه عن ظاهرتي الكسوف والخسوف وحركة الشمس والقمر، وفي هذا الكتاب استبعد بطليموس فكرة أن الأرض تتحرك .وذكر أن الأرض كروية وأن الجاذبية موجهة إلى مركز الأرض. ووضع «بطليموس» الأرض الثابتة في وسط الكون، وقال إن القمر، والشمس، والكواكب، سائرة حولها بمعدلات سرعة متباينة.

وقد أفرد بطليموس جزءين من كتاب التراكيب لقائمة بالنجوم، واشتملت تلك القائمة على ١٠٢٢ نجماً مجتمعة في ٤٨ برجاً. ووضع نظاماً رياضياً للنجوم، وأعطى خطوط الطول ودوائر العرض لكل واحد منها، واكتشف أيضا عدم انتظام القمر في مداره. ولقد أورد بطليموس جوانب فنية معينة من الفلك في كتاباته الأخرى. أما محاولاته الجادة في التنجيم، فقد ساعدت على انتشار الخرافات. وناقش بطليموس في البصريات انكسار الضوء، حينما يمر عبر وسيط إلى وسيط آخر بكثافة مختلفة.

شكل رقم (٣٤) بطليموس

واعتقد بطليموس أن النجوم نقاط مضيئة في كرة سيارة. وعلى هذه الخلفية النجومية، تابع بطليموس تحركات الكواكب. وخرج بنظرية لكل واحد منها، وأوضح أن الكواكب هي أقرب بكثير إلى الأرض من النجوم ـ لكنها أبعد من القمر، وطور نظامه الفلكي إلى حد كبير من أفكار الفلكي اليوناني «هيبارخوس». وقد اعتبر نظام بطليموس الفلكي مرجعاً في كل أوروبا حتى عام ١٥٤٣م، وفي تلك السنة، وضع الفلكي البولندي «نيكولاس كوبرنيكوس» نظريته القائلة بأن الأرض كوكب سيار. وأوضح كوبرنيكوس أن كثيراً من أفكار بطليموس لم تكن صحيحة.

ومن كتب بطليموس كذلك كتاب (الجغرافيا) أو (الدليل الجغرافي) وهو مناقشة مستفيضة للجغرافية المعرفية اليونانية - الرومانية في العالم، يقع في سبعة مجلدات ثامنها أطلس به خريطة للعالم المعروف حينذاك مؤلفة من ٢٦ قطعة، وخريطة أخرى تفصيلية لقارات العالم القديم. وقد احتوت كتبه على كثير من المعلومات الجغرافية المفيدة، كما احتوت خريطته للعالم على حوالي ثمانية آلاف موضع، وقد وضع عليها خطوط الطول ودوائر العرض لسهولة تحديد المواقع ،

وكان يعتقد أن الأرض تمتد إلى مالا نهاية له نحو الشرق والغرب. وقد جعل «بطليموس» خط الاستواء دائرة العرض الأساسية، أما بالنسبة لخط الطول الأساسي فقد جعله يمر بجزر كناري في المحيط الأطلسي وكانت تعرف آنذاك بالجزر السعيدة أو جزر السعادات. ويعتبر «بطليموس» أول من استخدم اصطلاحات خطوط الطول ودوائر العرض بمعناها الحقيقي.

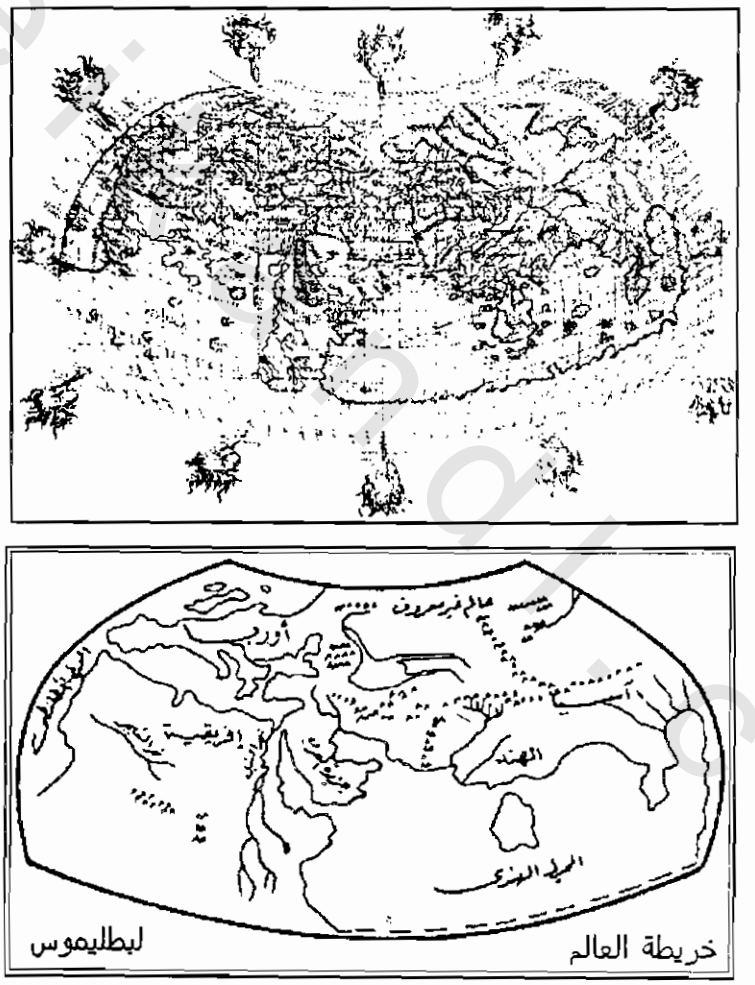

شكل رقم (٣٥) خريطة العالم لبطليموس

ويلاحظ علي هذه الخريطة الممتدة بين جزر كناري في الغرب والصين في الشرق أنه:

- جعل خط الاستواء إلي الشمال من موقعه الحالي وجعل مدار السرطان يمر بأسوان.
- جعل جبل طارق وسردينيا وروبس علي دائرة عرض واحدة.
- رسم شبه جزيرة الهند أصغر من حجمها الحالي.
- بالغ في رسم جزيرة سيلان.
- جعل اسكتلندا تمتد نحو الشرق وليس نحو الشمال.
- جعل بحر قزوين مغلقا علي عكس من سبقوه.
- جعل امتداد قارة أفريقيا نحو الشرق في جنوبي المحيط الهندي، وأوصلها بشبه جزيرة الملايو.
- جعل المحيط الهندي محيطا مغلقاً.
- اعتقد بامتداد آسيا نحو الشرق أكثر مما هي عليه.
- جعل نهر النيل ينبع من جبال القمر.

ومع ذلك يعتبر «بطليموس» من أعظم الشخصيات الجغرافية في العصر الروماني، ويعتبر بحق حلقة الوصل بين الجغرافيا القديمة والجغرافيا الحديثة، ويوصف بأنه أبو الجغرافيا، ومن أفكاره أن الأرض كروية وثابتة وأن الأجرام السماوية هي التي تتحرك حولها. وقد بالغ بطليموس في امتداد كتلة الأرض من أسبانيا إلى الصين، وقلل من حجم المحيط. وقد شجع هذا الخطأ «كريستوفر كولمبوس» على القيام برحلته الشهيرة عام ١٤٩٢م.

وفي العهد الروماني ورغم توسع الرومان وإنشاء إمبراطوريتهم التي شملت

حوض البحر المتوسط إلا أنهم أهملوا النواحي العلمية للخرائط وخطوط الطول والعرض، ومن الخرائط التي اهتم بها الرومان تلك الخرائط التخطيطية أو البيانية للطرق التي تتفرع من عاصمتهم روما مبينا عليها المسافات كما هو الحال في لوحة «بوتنجر» في القرن الثالث الميلادي.

خريطة رومانية للعالم

شكل رقم (٣٦) خريطة رومانية للعالم

من مراجع الفصل الثالث

أحمد محمد عبد العال ـ الإقليم والإقليمية في الفكر الجغرافي ـ مجلة الجغرافيا والتنمية ـ كلية الآداب جامعة المنوفية ـ العدد الثامن ـ فبراير ١٩٩٧ .

أحمد محمد عبد العال ـ دراسات في الفكر الجغرافي ـ دار فكرة ـ القاهرة ـ ٢٠٠٩ .

أحمد محمد عبد العال ـ نقاط التجديد في الفكر الجغرافي ـ مجلة المجمع العلمي المصري ـ المجلد الواحد والثمانون ـ ٢٠٠٥/ ٢٠٠٦ .

جورج سارتون ـ تاريخ العلم ـ ترجمة: إبراهيم بيومي مدكور وآخرون ـ الجزء الأول ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٦٣ .

حسن طه النجم ـ دراسة في الفكر الجغرافي ـ عالم الفكر ـ المجلد الثاني ـ العدد الثاني ـ الكويت ـ يوليو/ سبتمبر ١٩٧١ ـ ص ١٠٧ .

رينيه كلوزييه ـ تطور الفكر الجغرافي ـ تعريب: عبد الرحمن حميده ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٨٥ .

شريف محمد شريف ـ تطور الفكر الجغرافي ـ الجزء الأول ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ ط١ ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٦٩ .

عيسى موسى الشاعر ـ نظرة في أنماط الفكر الجغرافي ـ الدارة ـ العدد الأول ـ السنة السابعة ـ أغسطس ١٩٨١ .

محمد على عمر الفرا ـ الفكر الجغرافي في العصور القديمة والوسطي ـ مكتبة الفلاح ـ الكويت ـ ١٩٨٧ .

محمد محمود محمدين ـ الجغرافيا والجغرافيون بين الزمان والمكان ـ دار الخريجي ـ الرياض ـ بدون تاريخ نشر .

Jensen H.، A. Geography: History and Concepts. Third edition. Sage. London. 2003.